فوتوغرافيا

سمير مراد

تجربة مصوّر مخضرم غطى الحروب

جمال السعيدي: طبيعة لبنان قادتني إلى درب الشفاء

بعد ثلاثة اشهر فقط على نيله جائزة "بوليتزر" المرموقة بفضل صورته الايقونية، انتحر المصوّر الجنوب افريقي كيفن كارتر (1960 ـ 1994) يوم 27 تموز 1994، تاركا ورقة كتب عليها: "انا مكتئب (...) تسكنني ذكريات المجازر والجثث والغضب والالم، تسكنني ذكريات الاطفال الجرحى والجوعى"

مات كيفن كارتر قبل ذلك التاريخ. مات لحظة التقط تلك الصورة الايقونية التي لفتت انظار العالم الى ما خلفته الحرب والمجاعة في السودان. سكنته صورة تلك الفتاة الصغيرة في قرية ايود في جنوب البلاد. طفلة في عز الظهيرة ذات يوم من آذار 1993، انهكها الجوع ولم يترك فيها الا عظاما ناتئة، فجلست تستريح قليلا في انتظار اهلها الذين قصدوا مركزا للامم المتحدة يزوّدهم الطعام. لكن خلال استراحتها المستسلمة، المتأرجحة بين الحياة والموت، كان هناك نسر يتربّص بها، متحيّنا لحظة انهيارها كي ينقض على فريسته الصغيرة ويشبع جوعه.

هزّت تلك الصورة ضمير العالم حالما نشرت على الصفحة الاولى من جريدة "نيويورك تايمز" يوم 26 آذار 1993. صورة ملؤها القسوة، جسّدت خير تجسيد المأساة التي لفّت القارة السمراء. ادت هذه الصورة الى اتصال مئات الاشخاص بالجريدة، بغاية الاستعلام عن مصير الفتاة. كان الجواب انها تمكّنت من الهرب من النسر، لكن مصيرها ظل مجهولا.

يومها، انهالت ايضا الانتقادات على كارتر لانه لم يهب الى نجدة الطفلة، علما ان قانونا كان مفروضا على الصحافيين بعدم لمس ضحايا المجاعة حرصا على عدم انتقال اي مرض وانتشاره. حتى ان صحيفة "سانت بطرسبورغ" كتبت حينها: "رجل يعيّر عدسته لالتقاط افضل لقطة لمعاناة طفلة، ليس سوى وحش مفترس آخر، نسر آخر في الميدان".

لم ينس كارتر ولم يكن وحشا كاسرا. مات هناك قرب تلك الطفلة، ولم يستمتع بارفع تتويج يحلم به اي مصوّر. كان الندم يتآكله لانه لم يساعد الطفلة، وكانت صور المجازر والعنف حيّة وماثلة وراسخة في مناماته.

من هذه الزاوية، يمكن النظر الى سيرة المصوّر الصحافي جمال السعيدي (1957) الذي ما زال حتى اليوم مسكونا بصور الجثث والدم والعنف التي عايشها. ابن بلدة برجا الجنوبية، انخرط باكرا في مهنة المتاعب، وتحديدا التصوير الفوتوغرافي. صحيح انه درس العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية وتخرّج في عام 1978، الا انه حمل الكاميرا باكرا، هو الذي ولد في عائلة تمارس مهنة التصوير الفوتوغرافي. في عام 1977، بدأ مهنته كمصوّر صحافي في الجرائد المحلية. من عام 1980 حتى 1987، عمل مصورا لدى وكالة "اسوشيتد برس" ثم مصوّرا لدى وكالة "رويترز" حيث ما زال حتى اليوم.

خلال كل هذه المدة، غطى السعيدي المفاصل التاريخية في المنطقة، من الحرب اللبنانية (1977 - 1990) والعراقية (1991 ـ 2004) وصولا الى مهماته في السودان واليمن وليبيا وايران والسعودية وقطر والاردن. ترأس نقابة المصوّرين الصحافيين في لبنان من عام 1998 الى عام 2008، ونشرت صوره في صحف ومنابر غربية عالمية معروفة ابرزها صحف "اندبندنت"، و"غارديان"، و"هيرالد تريبيون"، و"نيويورك تايمز"، و"واشنطن بوست"...

لكن ذلك كان مقابل ثمن باهظ نفسيا ومعنويا. خلال السنوات الماضية، بدا السعيدي تجربة جديدة في مسيرته، تمثّلت في عملية علاج ذاتي من الفظائع التي كان شاهدا عليها وخلّدتها عدسته على رأسها مجازر قانا ومجازر صبرا وشاتيلا. التفت الى الطبيعة ولجأ اليها بوصفها الام الكبرى، علّها تضمد الندوب التي خلّفتها رصاصات القتل في الذاكرة. في عام 2013، اصدر كتابه الفوتوغرافي الاول "لبنان الجمال... يفوق الخيال"، الذي خصصه لطبيعة لبنان وتقاليده وعاداته اليومية، موثقا جماله وبيئته ومناخه، مرفقا بنصوص وشذرات وجدانية وشاعرية بالانكليزية. ها هو يصدر اخيرا كتابا ثانيا بعنوان "فصول لبنان" (تورنينغ بوينت).

في هذا العمل، حاول السعيدي تتبع فصول لبنان الاربعة، بلقطات خاصة استغرقته وقتا وجلدا ورحلة امتدت من شمال لبنان الى جنوبه ومن شرقه الى غربه.

"الامن العام" التقت المصوّر اللبناني للحديث عن هذا الكتاب، ورحلته العلاجية من صور الدم والجثث، الى جانب طرح التحديات التي تواجه هذه المهنة في عصر الثورة الرقمية وزمن المواطن/ الصحافي.

■ صدر اخيرا كتابك الثاني "فصول لبنان". هلا اخبرتنا عنه ومضمونه الفوتوغرافي وكم استغرق وقتا معك؟ ما الذي دفعك الى اصدار كتاب يعتبر بمثابة نشيد حب لطبيعة لبنان؟

□ الكتاب عبارة عن رحلة بصرية في ارجاء لبنان، من شماله الى جنوبه، وجبله وبقاعه وصولا الى العاصمة بيروت. يضيء الكتاب على زوايا وامكنة يسكنها الجمال والفرح بكل الوانه. كما انه يدق ناقوس الخطر للحفاظ عليها وحمايتها. استغرق تصوير الكتاب حوالي خمس سنوات، وكان دافعي خلالها الهروب من ضغط العمل الصحافي اليومي. كذلك هو يسعى الى الاضاءة على مكامن جمالية ربما لا يعرفها البعض.

■ لماذا صدر الكتاب بالانكليزية؟

□ صدر بالانكليزية ليحاكي لغة الشباب اليوم ويكون متاحا امام شباب لبنان المغترب وغير اللبنانيين ايضا كي يظهر جمال هذا البلد وضرورة التمسك به.

■ كتابك الاول ايضا حمل عنوان "لبنان الجمال... يفوق الخيال". يبدو اللجوء الى الطبيعة علاجا لمصوّر خبر الحروب عن كثب وكان شاهدا على فظاعتها، اليس كذلك؟

□ نعم، انه كتابي الثاني الذي يحاكي فصول لبنان الاربعة، علنا نحميه من التشوه والاهمال والاعتداء على طبيعته الجميلة. اعادتني الطبيعة الى توازني الجسدي والروحي وقادتني الى طريق الشفاء والصفاء والسلام. اخذني جمال الهضاب والسهول والزهر وبياض الثلج الى بعض السكينة، لعله يمحو من ذاكرتي ولو جزءا بسيطا من مخزون الحرب وتشوّهات القتل والعنف. فالطبيعة هي الام الحاضنة التي تعطي من غير حساب، وتتجدد كل يوم، وهي الملجأ ومنجم للجمال يجب علينا حمايته من العبث فيه.



المصور الصحافي جمال السعيدي.

> **كم من صورة كان لها تأثير مباشر في تغيير مجرى حروب العالم**
>
> **كيف انسى ما رأيته في مجزرتي قانا 1996 و2006؟**

■ انت مصوّر معروف. عدا انك نقيب سابق للمصوّرين في لبنان، غطيت الحروب في لبنان والعراق والسودان وغيرها. ما هي الآثار النفسية التي تتركها هذه الاحداث على مَن يشهد عليها، اي المصوّر في هذه الحالة؟

□ كانت لمشاركتي في تغطية احداث الحرب اللبنانية والاجتياحات والاعتداءات الاسرائيلية المتكررة، وكذلك حروب المنطقة، اثار سلبية كثيرة على نفسي، لم تنكشف الا بعد حين. في لحظة الحدث، في غمرة الاحداث المتكررة والمتصاعدة، لا وقت للخوف ولا وقت للحزن. جاء بعدها زمن الصدمة والدخول في دوامة المراجعة، وحضور كل بشاعة الحرب بصور القتل والخطف والتفجير... كل هذه تبقى ساكنة في وعينا، ووجداننا، وتزورنا كوابيسها الليلية ولا تفارقنا.

■ في رأيك، هل تساهم الصورة في التأثير في الرأي العام فعلا، خصوصا لجهة اظهار بشاعة الحرب؟

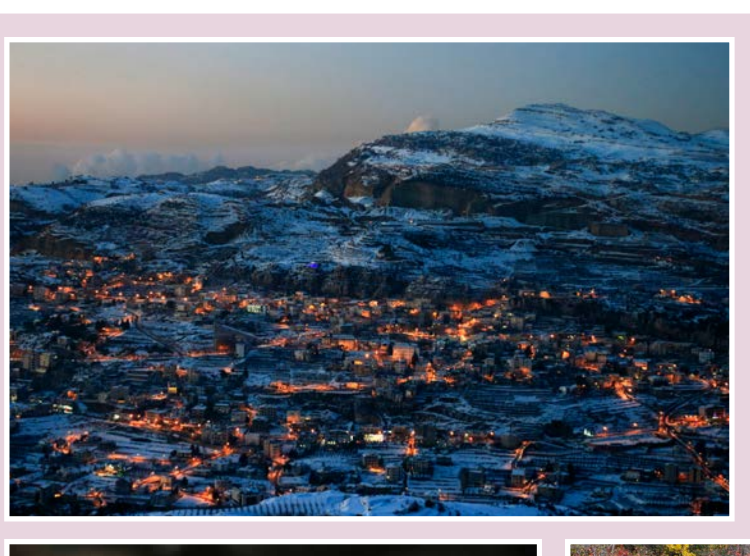
□ تكاد الصورة الفوتوغرافية في الحروب ان تكون هي القصة المشهدية الكاملة. كم من صورة ومشهد للحرب كان له تأثير مباشر في تغيير مجرى ومسار الحروب في العالم، لتكون الصورة هي الرواية الحقيقية.

■ ما هي الصورة التي التقطها انتَ خلال الحروب التي غطيتها وظلّت راسخة في ذهنك؟

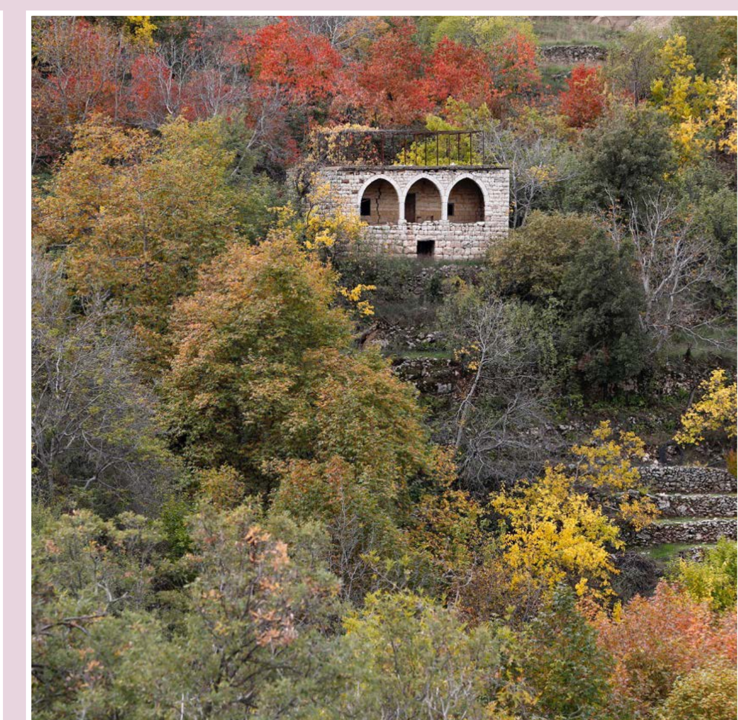
□ لو طرحتَ على كل جيلي من المصوّرين السؤال نفسه، لكان جوابهم واحدا يحكي الم وصدمة تصوير مجزرة صبرا وشاتيلا في اثناء اجتياح اسرائيل لبيروت عام 1982. كذلك، لا انسى صور مجازر قانا في جنوب لبنان عام 1996 وعام 2006. احاول دائما ان اتمرّن على نسيانها وافشل في ذلك، بخاصة صور ومشاهد الاطفال في تلك المجازر الرهيبة والمؤلمة.

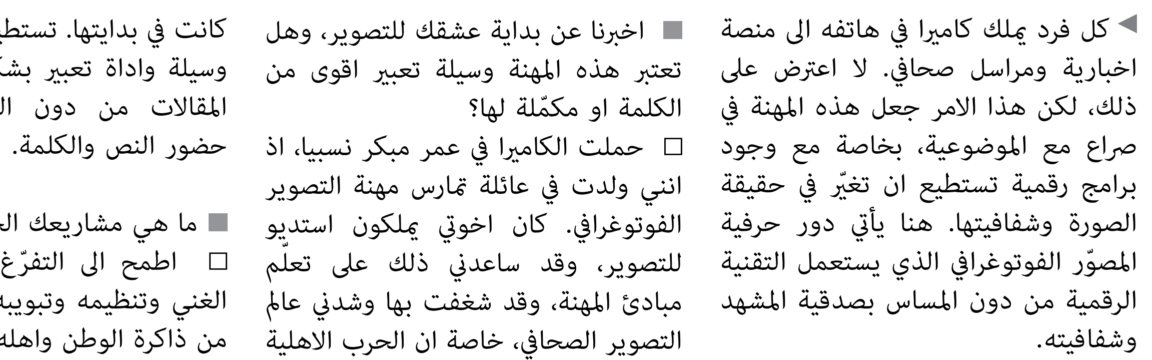
■ في زمن ثورة الاتصالات وصحافة المواطن، هل ترى تهديدا لمهنة اسمها التصوير الصحافي، وكيف ترى مستقبل هذه المهنة؟

□ لا شك في انه بات للصورة حضور كبير في زمن التواصل الاجتماعي، اذ تحوّل ◄









كل فرد يملك كاميرا في هاتفه الى منصة اخبارية ومراسل صحافي. لا اعترض على ذلك، لكن هذا الامر جعل هذه المهنة في صراع مع الموضوعية، بخاصة مع وجود برامج رقمية تستطيع ان تغيّر في حقيقة الصورة وشفافيتها. هنا يأتي دور حرفية المصوّر الفوتوغرافي الذي يستعمل التقنية الرقمية من دون المساس بصدقية المشهد وشفافيته.

■ اخبرنا عن بداية عشقك للتصوير، وهل تعتبر هذه المهنة وسيلة تعبير اقوى من الكلمة او مكمّلة لها؟

□ حملت الكاميرا في عمر مبكر نسبيا، اذ انني ولدت في عائلة تمارس مهنة التصوير الفوتوغرافي. كان اخوتي يملكون استديو للتصوير، وقد ساعدني ذلك على تعلّم مبادئ المهنة، وقد شغفت بها وشدني عالم التصوير الصحافي، خاصة ان الحرب الاهلية كانت في بدايتها. تستطيع الصورة ان تكون وسيلة واداة تعبير بشكل يختصر عشرات المقالات من دون التقليل من اهمية حضور النص والكلمة.

■ ما هي مشاريعك الجديدة؟

□ اطمح الى التفرّغ والعناية بارشيفي الغني وتنظيمه وتبويبه. في جعبتي الكثير من ذاكرة الوطن واهله.